تأليف

الإمام المفسّر أبي حفص عمر بن عليّ
ابن عادل الدّمشقي الحنبلي
المتوفّى بعد سنة ٨٨٠هـ

تحقيق وتعليق

الشيخ عادل أحمد عبد الموجود | الشيخ علي محمّد معوّض

شارك في تحقيقه برسالته الجامعيّة

الدكتور محمّد سعد رمضان حسن / الدكتور محمّد المتولي الدسوقي حرب

الجزء الحادي عشر

المحتوى :

أول سورة يوسف - آخر سورة الحجر

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾، فاعلُ «ظنَّ»: يجوزُ أن يكون يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ إن كان تأويله بطريقِ الاجتهادِ، وأن يكون الشَّرابي إن كان تأويله بطريقِ الوحي، أو يكون الظنُّ بمعنى اليقين؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، و ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]، قاله الزمخشريُّ. يعني أنه إن كان الظنُّ على بابه، فلا يستقيمُ إسناده إلى يوسف؛ إلاَّ أن يكون تأويله بطريق الاجتهاد، لأنه متى كان بِطَريقِ[1] الوحْيِ، كان يَقِيناً؛ فينسب الظنُّ حينئذٍ للشرابيّ لا ليوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وأمَّا إذا كان الظنُّ بمعنى اليقينِ، فيصح نسبتُه إلى يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ إن كان تأويله بطريق الوحْيِ.

وذهب قتادة: إلى كونِ الظن على بابه ـ وهو مسندٌ إلى يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهادِ ـ، فإنه قال: «الظنُّ هو على بابه؛ لأنَّ عبارة الرُّؤيا ظنٌّ»[2].

قوله: «مِنْهُمَا»، يجوزُ أن يكون صفةً لـ «نَاجٍ»، وأن يتعلَّق بمحذوفٍ؛ على أنَّهُ حالٌ من الموصول.

قال أبو البقاءِ[3]: «ولا يكونُ متعلقاً بـ «نَاجٍ» لأنَّه ليس المعنى عليه» قال شهاب الدين: لو تعلق بـ «نَاجٍ»[4] لأفهم[5] أنَّ غيرهما نَجَا منهما، أي: انفلت منهما، والمعنى: أنَّ أحدهما هو النَّاجي، وهذا المعنى الذي نبه عليه بعيدٌ توهُّمهُ.

والضميرُ في «فَأَنْسَاهُ»، يعودُ على الشرابيِّ، وقيل: على يوسف؛ وهو ضعيفٌ.

فصل في الاختلاف فيمن أنساه الشيطان ذكر ربه

قال يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ للناجي من الرجلين: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: عند الملك، أي: اذكرني عنده أنَّهُ مظلومٌ من جهة إخوته، لما أخرجوه، وباعوه، ثم إنَّه مظلوم في هذه الواقعة؛ التي لأجلها حُبِسَ.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ قيل: أنْسَى الساقي ذكر يوسف للملك، تقديره: فأنساه الشيطان ذكره لربه.

ورجَّح بعضُ العلماء هذا القول، فقال: لو أنَّ الشيطان أنْسَى يوسف ذكرَ الله، لما استحقَّ العقاب باللَّبثِ في السِّجنِ؛ إذ النَّاسي غيرُ مُؤاخذٍ.

---

(١) في ب: يطابق.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٤٧١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٧) وزاد نسبته إلى أبي الشيخ.

(٣) ينظر: الإملاء ٢/ ٥٣.

(٤) سقط من: ب.

(٥) في ب: لئلا يفهم.

وقد يجابُ عن ذلك بأنَّ النِّسيانَ قد يكونُ بمعنى التَّركِ، فلما تركَ ذكر اللَّهِ، ودعاهُ الشَّيطانُ إلى ذلك، عوقب.

وأجيب عن هذا الجواب بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾، فدلَّ على أن النَّاسي هو السَّاقِي لا يوسف، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، فكيف يصحُّ أن يضاف نسيانه إلى الشيطان، وليس له على الأنبياء سلطان؟.

وأجيب عن هذا بأن النسيان لا عصمة للأنبياء عنه، إلاَّ في وجه واحد وهو الخبرُ من الله تعالى، فيما يلقُّونه؛ فإنَّهم مَعْصُومُون فيه، وإذا وقع منهم النسيان حيثُ يجوزُ وقوعه، فإنَّه ينسبُ إلى الشيطان؛ وذلك إنَّما يكونُ فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم، قال عليه السلام: «نَسِيَ آدمُ فنَسِيَتْ ذُريته» وقال: «إنَّما أنا بشرٌ، أنْسَى كما تَنْسَوْن».

وقال ابنُ عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ وعليه الأكثرون: «أنسى الشيطانُ يوسف ذكر ربِّه؛ حتَّى ابتغى الفرج من غيره، واستعان بمخلوقٍ؛ وتلك غفلة عرضتْ ليُوسفَ مِنَ الشَّيطانِ»[1].

«فَلَبِثَ»: مكث «في السِّجنِ بِضْعَ سِنينَ» قال ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ أخِي يُوسفَ؛ لوْ لَمْ يقُلْ: «اذْكرنِي عِنْدَ ربِّكَ»؛ ما لبثَ فِي السِّجن»[2]، ومما يدلُّ على أنَّه المراد قوله ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ ولو كان المراد الساقي لقال فأنساه الشيطان ذكر يوسف[3]. واعلم أنَّ الاستعانة بغيرِ الله في دفع الظلم، جائزةٌ في الشريعة، لا إنكار عليه.

وإذا كان كذلك، فلم صار يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ مُؤاخذاً بهذا القدر؟ وكيف لا يصيرُ مؤاخذاً بالإقدام على الزِّنا؟ ومكافأةِ الإحسان بالإساءة [أولى]؟.

فلما رأينا الله أخذ يوسف بهذا القدرِ، ولمْ يؤاخذه في تلك القضية ألبتَّة، وما عابهُ، بل ذكره بأعظمِ وجوهِ المدحِ والثناءِ ـ علمنا أنَّهُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان مُبرَّأً ممَّا نسبوهُ إليهِ.

فصل في اشتقاق البضع وما يدل عليه

قال الزجاجُ[4]: «اشتقاقُ البضْعِ من بَضعْتُ بمعنى قَطعْتُ».

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٢١) وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٧) وزاد نسبته إلى ابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات والطبراني وابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٣٧) وعزاه إلى أحمد في الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن الحسن مرسلاً.
وذكره أيضاً عن أبي هريرة وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) سقط من: ب.

(٤) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٣/ ١١٢.